حيوانات الجيزة

فرس البحر

وقفنا بالامس في حديقة الحيوانات بالجيزة امام البركة الكبيرة التي يسبح فيها فرس البحر ورأينا حارسهُ فقال لنا اظنكم تودون ان تروهُ فقلنا نعم فناداهُ واذا بالماء يموج ورأس خرج منهُ بمخرين بارزين وعينين جاحظتين وجلد كلون الماء الآسن رمادي صقيل حتى اذا وصل الى حيث كان حارسهُ صعد الى البر فرأينا حيواناً ضخماً كالثور البدين مملوء الجسم مكتنز اللحم ففغر فاهاً كالهاوية ووقف ينتظر كالمتسول الطعوج وهو ينفض رأسهُ ذات اليمين وذات اليسار وقد رسمت البلادة على وجههِ آياتها وضربت الذلة في عينيهِ اطنابها . فرمى الحارس في شدقهِ رؤوساً من البطاطس فالتهمها باسرع من لمح البصر وفتح فاهُ ثانية يطلب غيرها فرمى لهُ رؤوساً اخرى فاتبعها سابقتها وفغر فاهُ ثالثة ولما رأى ان سلتهُ طلعت فارغة هذه النوبة ادار رأسهُ وعلا ادراجهُ ولسان حالهِ يقول

لقد علمت وما التقتير من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
اسعى لهُ فيعنّيني تطلُّبهُ وان قعدت اتاني لا يعنّيني
لاخير في طمع يدني الى طبعٍ وعفة من قوام العيش تكفيني

اخبرنا اناس من مبت العطار انهم رأوا فرس البحر في النيل منذ شهرين على نحو ميلين من بنها جنوباً ولعلهم واهمون لاننا لم نسمع ان احداً رآهُ غيرهم لكنهُ كان كثيراً في النيل في الزمن الغابر وبقي فيهِ الى عهد موفق الدين عبد اللطيف البغدادي في اوائل القرن السابع الهجري فوصفهُ وصفاً بديعاً قال

« ومن ذلك فرس البحر وهذه توجد باسفل الارض وخاصة ببحر دمياط وهو حيوان عظيم الصورة هائل المنظر شديد البأس يتتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر بهِ منها وهو بالجاموس اشبه منهُ بالفرس لكنهُ ليس لهُ قرن وفي صوتهِ صحلة يشبه صهيل الفرس بل البغل وهو عظيم الهامة عريض الاشداق حديد الانياب عريض الكلكل منتفخ الجوف قصير الارجل شديد الوثب قوي الدفع مهيب الصورة مخوف القائلة . وخبرني من اصطادها مرات وشقها وكشف عن اعضائها الباطنة والظاهرة انها خنزير كبير وان اعضاءها الباطنة والظاهرة لا تغادر من صورة الخنزير شيئاً الاَّ في عظم الخلقة . ورأيت في كتاب نيطواليس

فرس البحر

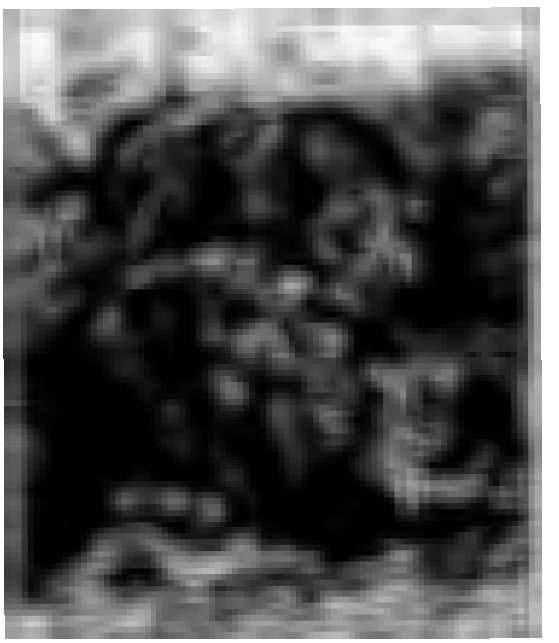

فرس البحر في الماء وفلوها على رأسها

في الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورتهُ . قال خنزيرة الماء تكون في عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل واذنها شبه اذن الجمل . قال وشحم متنها اذا أُذيب ولت بسويق وشربتهُ امرأة اسمنها حتى تجوز المقدار

« وكانت واحدة بحر دمياط قد ضربت على المراكب تغرقها وصار المسافر في تلك الجهة مغرراً وضربت أخرى بجهة أُخرى على الجواميس والبقر وبني آدم تقتلهم وتفسد الحرث والنسل . واعمل الناس في قتلها كل حيلة من نصب الحبائل الوثيقة وحشد الرجال باصناف السلاح وغير ذلك فلم يجد شيئاً فاستدعي بنفر من المريس صنف من السودان زعموا انهم يحسنون صيدها وانها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق . فتوجهوا نحوها فقتلوها في اقرب وقت وباهون سعي واتوا بها الى القاهرة فشاهدتهما فوجدت جلد احداها اجرد اسود ثخيناً جداً وطولها من رأسها الى ذنبها عشر خطوات معتدلات وهي في غلظ الجاموس نحو ثلث مرات وكذلك رقبتها ورأسها . وفي مقدم فيها اثنا عشر ناباً ستة من فوق وستة من أسفل المتطرفة منها نصف ذراع زائد والمتوسطة انقص بقليل . وبعد الانياب اربعة صفوف من الاسنان على خطوط مستقيمة في طول الفم في كل عشرة كامثال بيض الدجاج المصطف صفان في الاعلى وصفان في الاسفل على مقابلتها . واذا فغر فوها وسع شاة كبيرة . وذنبها في طول نصف ذراع زائد غليظ وطرفهُ كالاصبع اجرد كانهُ عظم شبيه بذنب الورل وارجلها قصار طولها نحو ذراع وثلث ولها شبيه بخف البعير الاَّ انهُ مشقوق الاطراف باربعة اقسام وارجلها في غاية الغلظ . وجملة جثتها كانها مركب مكبوب لعظم منظرها . و بالجملة هي اطول واغلظ من الفيل الاَّ ان ارجلها اقصر من ارجل الفيل بكثير ولكن في غلظها او اغلظ منها » انتهى

ولقد اصاب عبد اللطيف بقولهِ ان فرس البحر شبيه بالخنزير . وكان المصريون الاقدمون يسمونهُ بما معناهُ خنزير النهر وهو اصلح الاسماء لهُ من باب عملي . وكان كثيراً في عصرهم كما يظهر من صورهِ بين ما نقشوهُ من الحيوانات كما يُرى في هيكل ادفو . وكانوا يصطادونهُ رمياً بالحراب كما يفعل الزنوج . اما الآن فلا يرى فرس البحر الى الشمال من دنقلة وبقي في جزائر النيل بابي حمد وبربر حتى اواخر القرن الماضي . ويكثر وجودهُ فوق الخرطوم وفي كل انهار افريقية بين الدرجة ١٧ شمالاً و٢٥ جنوباً وفي بحيرة صانا دما في بلاد الحبشة حيث الارتفاع عن سطح البحر ستة آلاف قدم . ويظهر من وصفهِ في سفر ايوب انهُ كان في فلسطين في عصر التاريخ . ومن آثارهِ الباقية في اوربا انهُ كان فيها في العصور الجيولوجية الحديثة

واكثر اقامته في الماء . وجسمهُ اثقل من الماء لانهُ يغرق فيهِ اذا قُتِل . والفرق بين ثقله النوعي وثقل الماء قليل فيسهل عليهِ السير على قاع الانهر والبحيرات لانهُ يكون محمولاً بالماء لكنهُ لا يقيم تحت الماء اكثر من خمس دقائق كما قال السر صموئيل باكر هذا اذا لم يكن ما يزعجهُ واما اذا خاف الطوارىء فانهُ يقيم تحت الماء عشر دقائق او اكثر . وسيرهُ في الماء سريع جدًّا

قال السر صموئيل انهُ كان مرةً في سفينة بخارية في اعالي النيل وكانت تسير عشرة اميال بحرية في الساعة وكان امامهم فرس بحر على مئة يرد منهم فلم يستطيعوا ان يدركوهُ الاَّ بعد ان زادوا سرعة السفينة الى غايتها

واغرب ما في افريقية الزراقة في البروفرس البحر في النهر ولاسيما اذا كانا آجالاً . قال المستر سلوس الصياد الشهير « رأينا على رملة بيضاء خارجة في الماء قطيعاً فيهِ عشرون من افراس البحر ضخمة الاجسام متراكمة بعضها بجانب بعض كقطع الغنم . وكنا على نحو ٢٥٠ يردًا منها ما من شيء يحجبها عن نظرنا او يحجبنا عن نظرها ومع ذلك لم تدرِ بنا كأنها كانت نائمة . وقد يرفع واحد منها راسهُ ويحركهُ يمنةً ويسرة ثم يفعل آخر فعلهُ واخيراً سمعتنا نتكلَّم فجعلت تنهض الواحد بعد الآخر وتسير الى النهر مسرعة او مبطئة وترتمي فيهِ وتغوص او تسبح ولا يبقى منها الاَّ مناخرها فوق الماء وكان معها عجول صغيرة وهي التي ركضت الى الماء مسرعة واما الكبار فسارت اليهِ الهوينا »

وقال السر جون ولوبي « رأينا افراس البحر ونحن في قارب يسير نحوها لكنها لم تبالِ بنا بل بقيت تسرح وتمرح وتضخ الماء من مناخرها وتغوص في الماء ثم ترفع رؤوسها فوقهُ بعد دقيقتين او ثلاث وتنظر الى ما حولها . ولما صرنا على ثلاثين يردًا منها سكن ثائرها ونظرت الينا مدهوشة والظاهر اننا اول من رأتهم يخرون في تلك المياه

وقال السر صموئيل باكر انهُ رأى قرعًا من النيل الابيض في زمن التماريق وقد تراكمت افراس البحر فيهِ حتى خشي ان تمنع سير السفينة لكن الافراس افترقت حالاً فرقتين فسارت السفينة بين رؤوس تشخر وانوف تنفر

ووصف الدكتور لفنستون مسارح افراس البحر على ضفاف نهر شوبي ونحوهِ من الانهار الافريقية الكبيرة فقال ان ضفافها تخدة بجدود حيث تصعد الافراس ليلاً لترعى العشب ثم تعود في النهار الى الماء مهتدية اليها برائحة الطريق الذي سارت فيهِ فاذا وقعت الامطار فزالت الرائحة تعذر عليها الرجوع الى النهر فتقف حيرى لا تدري كيف تسير .

والغالب ان يبقى الذكور مع الاناث ولكن اذا طعنت الذكور في السن فقد تعتزل وحدها وهي تفضل الماء الراكد على الجاري لانهُ يسهل عليها السير في الاول ولا يسهل في الثاني وتقضي نهارها نائمة او قاعدة غير منتفتة الى ما يجري على بُعد منها . والذكور لها شخير عالٍ يُسمع على بعد ميل . وتقيم الفحول على رقاب امَّاتها وترفع رؤوسها فوق الماء لتتنفس وتعلم الامات حاجتها الى التنفس فترفع رؤوسها بها فوق الماء اكثر مما ترفعهُ لو كانت وحدها . وقد علَّم الاخبار في انهار لوندا ان تتقي الصيادين فلا ترفع رؤوسها هناك فوق الماء الاَّ في الاجام وتتنفس حينئذٍ سريعاً ثم تختفي وهي لا تفعل كذلك في زمبيسي حيث لا يتعقبها الصيادون

ومقامها في النيل الابيض بين قصب الغاب الذي يغطي ضفتيهِ كما قال السر صموئيل باكر فتقيم هناك في المستنقعات حيث الغاب كثيف لا يجتازهُ انسان . وطرقها امراب خرقتها في الهشيم المتلاصق كأنها اوجار اليرابيع فتلجأ اليها لتنام فيها ولا سيما الاناث منها فانها تتنابها دواماً هي وصغارها فتأمن فيها من الانسان والحيوان

وفرس البحر من آكلات العشب ومعدتهُ واسعة جدًّا تسع اردبًّا او اكثر فاذا لم يكن في مسارحهِ زرع اكتفى بما يجدهُ من العشب البري والمائي ولكن اذا كان فيها زرع من الارز والذرة وقصب السكر عاث فيها واكل زرعها وداس ما لم يأكلهُ . والغالب انهُ يخرج من الماء بعد غروب الشمس بساعة ويعود اليهِ عند الفجر

وتلد الانثى فذًّا في الغالب وقد تتئم . قال السر صموئيل باكر انهُ لم يرَ انثى ومعها اكثر من عجلين . ومدة الحمل ثمانية اشهر او اقل قليلاً والامات حريصات على اولادهن واما الذكور فلا تعبأ بها . والذكور في حرب دائمة في زمن المزاوجة وفي غيرهِ واذا جُرح واحد منها لم تشفق عليهِ رفاقهُ بل تجهز عليهِ اذا استطاعت

وفرس البحر جبان في الغالب لا يبادئ بالعدوان ولكن اذا مرَّ قارب بين جماعة منهُ بغتةً وهي نائمة او اذا صدم فرساً منها فجأةً في الليل فالعاقبة وخيمة غالبًا . قال السر صموئيل باكر انك اذا مررت في قارب عادي في النيل وقام في رأس فرس البحر ان قاربك بنوي لهُ شرًّا فلا سبيل للنجاة منهُ . فلا تكاد تسمع شخيرهُ على مقربة منك حتى تشعر بشيء دخل تحت قاربك وقلبهُ بك . وذكر لفنستون فرس بحر رفست قاربًا فكسَّرتهُ وفرسًا اخرى قُتل فلوها فادخلت رأسها تحت قاربهِ وكان معهُ فيهِ سبعة رجال فرفعتهُ وكادت تقلبهُ . وهاجمت فرس الباخرة التي كان فيها السر صموئيل باكر في النيل الابيض

وكسرت بعض الواح رفاصها وخرقت قاعها خرقين كبيرين بانيابها . واغرب ما ذكرهُ السر صموئيل من نوادر فرس البحر ان البعض كانوا يعبرون النيل بقطيع من البقر سباحة واذا بقطيع من افراس البحر هجم عليهم وقبض على الثيران وغاص بها في الماء فاغرقها

ويصيد زنوج افريقية فرس البحر الآن كما كان يصيدهُ المصريون الاقدمون طعنًا بالحراب فيخرج اثنان منهم لصيده ومع كلٍّ منهم حربة نصلها مسنن وقد ربطت بحبل حتى اذا اقتربا منهُ رمياهُ بالحربتين معًا وربطا حبليهما بقطعة من الخشب فتدل على الفرس اذا غاص في الماء ثم يتبعهُ الصيادون يرشقونهُ بالحراب كلما صعد من الماء ويربطون الخشبة بحبل آخر ويجرون الفرس الى البر ويقتلونهُ طعنًا بالحراب . ولكن قلما يتمكنون من ذلك من غير ان يقتل واحد منهم او اثنان . ولهم في صيده اساليب اخرى في اواسط افريقية كما في صيد الفيل اشدها قسوةً امانتهُ جوعًا كما يفعل الكفرة على ما رواهُ المستر سلوس فانهم يسوقون افراس البحر الى بركة في النهر ثم يقيمون حاجزًا من الاشجار والاشواك بين البركة والنهر حتى يمنعوا الافراس من الخروج . وقال انهُ رأى بركة مثل هذه وكانت افراس البحر قد حُبست فيها منذ ثلاثة اسابيع وكلما حاول واحد منها الخروج طُعن بالحراب

ويصاد فرس البحر الآن لاجل جلده ولحمهِ ودهنهِ فتصنع من جلده السياط ويأكل الزنوج لحمهُ ودهنهُ وقد قال السر صموئيل ان لحمهُ طيب الطعم ولاسيما لحم عجولهِ والشوربا التي تصنع من جلده تشابه شوربا السلحفاة البحرية . وهي اغلى انواع الطعام عند الاوربيين واغلاها ثمنًا

ويعيش فرس البحر في بساتين الحيوانات ويتوالد ولكن عجولهُ التي تولد هناك قلما تعيش

ويبلغ طول الكبير منهُ ١٤ قدمًا وثقلهُ اربعة اطنان وهو اكبر ذوات الاربع بعد الفيل ولونهُ رمادي او اسمر ضارب الى السواد وقد رأى السر جون كرك افراس بحر في شرق افريقية تكاد تكون بيضاء . ويطول نابا الاسفلان احيانًا حتى يبلغ طول كلٍّ منهما ٣١ عقدة ومحيطهُ عند قاعدتهِ ٩ عقد

اما صيدهُ بالرصاص فقال المستر تجادر انهُ سهل على شرط ان يخرق الرصاص دماغهُ لكنهُ حذر جدًّا فاذا اراد ان يتنفس لم يخرج رأسهُ كلهُ من تحت الماء بل اكتفى باخراج منخريهِ والغالب انهُ يخرجها لحظة واحدة للزفير ويغوص في الماء ويبعد فيهِ ثم يخرجها للشهيق فلا يدع للصياد مجالاً ليسدد رصاصهُ اليهِ . قال لما وقعت عيني على اول فرس بحر في افريقية كان ذلك في نهر آتي وعرض هذا النهر نحو ١٥٠ قدمًا وطول ما يستطيع الفرس السباحة

فيهِ نحو الف يرد وقد رآني حالما رأيتهُ ولم أكد ارفع البندقية الى كتفي حتى اختفى تحت الماء فوقفت في مكاني والبندقية في يدي وانا التفت الى النهر منتظراً ان اراهُ يرفع رأسهُ واذا بشخير على نحو ٣٠٠ يرد فوق المكان الذي غاص فيهِ فارسلت بعض رجالي الى ما فوق الرقعة التي يستطيع السباحة فيها وبعضهم الى ما تحتها لكي يمنعاهُ من الخروج منها واقمت بقيتهم على ضفتيها بعيداً عنها حتى يروهُ ولا يراهم وبقينا ساعة من الزمان ونحن نرقبهُ على هذه الصورة واذا برأسهِ يبرز من سطح الماء وكنت مستعدًّا لهُ فاطلقت الرصاص عليهِ حالاً وظهر لي كأنهُ غاص في الماء قبلما اطلقت الرصاص لكنني لم اقطع بذلك . وكان علينا ان ننتظر هناك ساعة او ساعتين فاذا كنت قد اصبتهُ وجرحتهُ فقط فلا بدَّ لهُ من ان يبعد عنا حتى يصل الى مكان يختفي فيهِ ثم يرفع انفهُ ويتنفس رويداً رويداً ويبقى هناك ساعات لا يبدي حراكاً . واذا كانت الاصابة قاتلة غرق في الماء حالاً وبقي غارقاً ساعتين او ثلاثا حسب حرارة الماء الى ان تتمدَّد الغازات في بطنهِ فتجففهُ وترفعهُ فيطفو ويسهل حينئذٍ جرهُ الى الشاطىء . فانتظرنا ساعة بعد اخرى اربع ساعات متوالية على غير طائل والظاهر انهُ هرب الى مكان بعيد واختفى فيهِ . وقد اخبرني الكولونل روزفلت الذي التقيت بهِ في شرق افريقية سنة ١٩٠٩ ودعاني للصيد معهُ انهُ رمى فرس بحر في نيڤاشا وجرحهُ فما كان من الفرس الاَّ انهُ فغر فاهُ وهجم على قاربهِ وكان فيهِ هو وابنهُ كرمت وبعض الصيادين من الزنوج فاطلق عليهِ رصاصتين اخريين فارداهُ بهما

وكان صائد المائي اسمهُ شمت يصيد فرس البحر في نهر روفيجي هو وصياد اوربي آخر وبعض الزنوج فاصطادوا اثنين وانتظروا حتى انتفخا وطفوا فوق الماء فذهبوا اليهما بقارب وربطوهما وجروهما وقبل ان يصلوا بهما الى البر هجم عليهما فرس بحر كبير وضرب القارب فقلبهُ بمن فيهِ وكان شمت ورفيقهُ يحسنان السباحة فسبحا الى البر وسبح معهم الزنوج فتبعهم فرس البحر وقبض على واحد منهم بشدقيهِ فكاد يقطعهُ اثنين . وكانت اسلحتهم كلها قد غرقت لما قلب القارب بهم فلم يبقَ لهم سبيل لانقاذهِ

وذكر مجادر حادثتين حدثتا لهُ في صيد فرس النهر كادتا تودبان بهِ . الاولى انهُ صاد فرساً كبيراً في نهر حيث كان الماء بطيء الجريان فلما اصابهُ الرصاص غرق حالاً وكان الماء شديد الحرارة فلم يمضِ عليهِ نصف ساعة حتى انتفخ وطفا على وجه الماء وجعل يجري معهُ وكان النهر ينعطف حيث كان مجادر واقفاً هو ورجالهُ فظن ان الفرس يصل اليهِ وهناك بركة كبيرة تقيم الجثة فيها الى ان يتمكنوا من ربطها ورفعها الى البر وتحت البركة منحدر يجري

الماء فيهِ بسرعة كالشلالات لكن جثة الفرس لم تدنُ منهم بل ابعدت نحو الضفة الاخرى من النهر وكادت تصل الى التيار فيسرع بها الى الشلال ولم يكن معهم قارب يصلون بهِ اليها. وحض تجادر رجالهُ على السباحة اليها ور بطها فابوا خوفاً من افراس البحر والتماسيح. ولما رأى آباءهم خلع ثيابهُ وسلك حبلاً بامتانهِ وجعل يسبح نحو الجثة وقبل ان وصل اليها شعر كأن سمكاً خرقت فخذهُ فحسب ان التمساح مسكهُ فاسقط في يدهِ وندم على ما فعل ولات ساعة مندم لكنهُ وصل الى الجثة وصعد عليها فرأى في فخذهِ جرحاً كبيراً لم يعرف سببهُ ثم ربط الحبل بعنق الجثة وامر رجالهُ بجرها ووصلت الى البر وهو راكب عليها بعد ان وقع عنها مرتين

وبعد ايام رمى فرساً آخر في ذلك النهر فطفا فوق الماء بعد ٣٢ دقيقة وكان من اكبر افراس البحر فجرَّهُ التيار الى الضفة المقابلة وخاف تجادر ان يعود بهِ التيار الى الشلال فارسل اليهِ اثنين من رجالهِ ربطاهُ بحبل متين وجعل الرجال يجرونهُ لكن التيار كان شديداً فقطع الحبل وجرى بالجثة ورماها من فوق الشلال فنزلت الى الجنادل التي تحتهُ وعلقت بصخر كبير وكادت تنطوي عليهِ لشدة دفع الماء لها. وطلب تجادر من رجالهِ ان ينزلوا اليها ويربطوها فابوا خوفاً من التيار ولما رأى منهم ذلك غرَّر بنفسهِ ثانيةً غير حاسب للشلال حساباً ومسك الحبل وجعل يسبح فحملهُ التيار ورماهُ من فوق الشلال ودفعهُ على جثة الفرس فبلغها سالماً من غير ضرر لمرونتها ورأى حينئذٍ انهُ يستحيل عليهِ ان يربطها ويجرها معاً كان الحبل متيناً لشدة التيار فربط الحبل بحنكها الاسفل ونادى رجالهُ ليأتوهُ بفاس كبيرة فبادر اليهِ ثلاثة منهم امسكوا بالحبل واستسلموا للتيار فاوصلهم اليهِ فتعاونوا على قطع الراس وعادوا الى البر وجعلوا يجذبون الحبل لكن التيار قطعهُ مع انهُ انغلظ من الابهام

ورأى تجادر تابي فرس بحر طول كلٍّ منها ٢٨ عقدة اي قدمان وثلث قدم والغالب ان يكون طول الناب قدماً الى قدم ونصف واطول ناب بلغ ٣١ عقدة كما تقدَّم اي قدمين وسبع عقد. ويبلغ ثقل الجلد الكبير حين سلخهِ ٤٠٠ ليبرة الى ٥٠٠

ولا يزال فرس البحر اكثر من كل الحيوانات الكبيرة في افريقية وسينقرض بعدها كلها لصعوبة الوصول اليهِ وقلة الانتفاع بهِ

ومنهُ نوع صغير جداً في غرب افريقية لا يزيد جرمهُ على جرم الخنزير ولا ثقلهُ على ٤٠٠ ليبرة. وارتفاعهُ عند كتفيهِ قدمان ونصف قدم وطولهُ الى آخر ذنبهِ ست اقدام وهو اسود اللون وبطنهُ رمادي ضارب الى البياض